

## التحرير والتنوير

وقيل : نزلت لأجل قول اليهود لرسول الله ﷺ كيف تقول أي في سورة الإسراء ( وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ) وقد أوتينا التوراة ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيرا كثيرا . وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى ( وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ) في سورة الإسراء .

وقال الترمذي عن ابن عباس : قال حيي بن أخطب اليهودي : في كتابكم ( ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ) ثم تقرأون ( وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ) ؛ فنزل قوله تعالى ( قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي... ) الآية .

يمكن معلوم فكل يبلغوه أن رسله إلى يوحى مما علمه من شيء على يدل ما : ﷺ وكلمات A E أن يخبر به . فإذا أخبر به صار كلمة . ولذلك يطلق على المعلومات كلمات لأن ﷺ أخبر بكثير منها ولو شاء لأخبر بغيره فإطلاق الكلمات عليها مجاز بعلاقة المآل . ونظيرها قوله تعالى ( ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ) . وفي هذا دليل لإثبات الكلام النفسي وإثبات التعلق الصلوبي لصفة العلم . وقل من يتنبه لهذا التعلق .

ولما كان شأن ما يخبر ﷺ به على لسان أحد رسله أن يكتب حرصا على بقائه في الأمة شبهت معلومات ﷺ المخبر بها والمطلق عليها كلمات بالمكتوبات ورمز إلى المشبه به بما هو من لوازمه وهو المداد الذي به الكتابة على طريقة المكنية وإثبات المداد تخيل الأظفار للمنية . فيكون ما هنا مثل قوله تعالى ( ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ) فإن ذكر الأقلام إنما يناسب المداد بمعنى الحبر .

ويجوز أن يكون هنا تشبيه كلمات ﷺ بالسراج المضيء لأنه يهدي إلى المطلوب كما شبه نور ﷺ وهديه بالمصباح في قوله تعالى ( مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ) ويكون المداد تخيلا بالزيت الذي يمد به السراج .

والمداد يطلق على الحبر لأنه تمد به الدواة أي يمد به ما كان فيها من نوعه ويطلق المداد على الزيت الذي يمد به السراج وغلب إطلاقه على الحبر . وهو في هذه الآية يحتمل المعنيين فتتضمن الآية مكنيتين على الاحتمالين .

واللام في قوله ( الكلمات ) لام العلة أي لأجل كلمات ربي . والكلام يؤذن بمضاف محذوف تقديره : لكتابة كلمات ربي إذ المداد يراد للكتابة وليس البحر مما يكتب به ولكن الكلام بني على المفروض بواسطة " لو " .

والمداد : اسم لما يمد به الشيء أي يزداد به على ما لديه . ولم يقل مدادا إذ ليس المقصود تشبيهه بالبحر لحصول ذلك بالتشبيه الذي قبله وإنما قصد هنا أن مثله يمدّه .  
والنفاد : الفناء والاضمحلال . ونفاد البحر ممكن عقلا .  
وأما نفاد كلمات □□ بمعنى تعلقات علمه فمستحيل فلا يفهم من تقييد نفاد كلمات □□ بقيد الطرف وهو ( قبل ) إمكان نفاد كلمات □□ . ولكن لما بني الكلام على الفرض والتقدير بما يدل عليه ( لو ) كان المعنى لو كان البحر مدادا لكلمات ربي وكانت كلمات ربي مما ينفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي .  
وهذا الكلام كناية عن عدم تناهي معلومات □□ تعالى التي منها تلك المسائل الثلاث التي سألوها عنها النبي A فلا يقتضي قوله ( قبل أن تنفذ كلمات ربي ) أن لكلمات □□ تعالى نفادا كما علمته .  
وجملة ( ولو جئنا بمثله مددا ) في موضع الحال .  
و ( لو ) وصلية وهي الدالة على حالة هي أجدر الأحوال بأن لا يتحقق معها مفاد الكلام السابق فينبه السامع على أنها متحقق معها مفاد الكلام السابق . وقد تقدم عند قوله تعالى ( فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ) في سورة آل عمران . وهذا مبالغة ثانية .  
وانتصب ( مددا ) على التمييز المفسر للإبهام الذي في لفظ ( مثله ) أي مثل البحر في الإمداد .  
( قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً [ 100 ] )